التجربة الأفغانية

مع نهاية شهر شوال ١٤١٢هـ، شهر أبريل ١٩٩٢م تدخل أفغانستان مرحلة جديدة هي مرحلة النصر، تليها مرحلة ما بعد النصر. يصادف هذا الوقت دخول الأفغان عامهم الرابع عشر في مسيرة جهادية في تجربة فريدة في وقتنا الحاضر. النصر فيها كان هدفًا واحدًا من هدفين، والآخر كان رجاء الشهادة في سبيل الله، وكانت من نصيب حوالي مليون وسبعمائة ألف.

لا يغيب عنا جهاد الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي حيث قدم الجزائريون أكثر من مليون من أبناء المسلمين الجزائريين ـ نحسبهم من الشهداء ـ. ولكن التجربة تختلف، وهناك وقت يفرق بين التجربتين. ولست بصدد المقارنة.

القضية الأفغانية نشأت في مهد الصحوة الإسلامية، ولذا توجه إلى أفغانستان مجموعات غير يسيرة من شباب الصحوة، فاكتسبت القضية الأفغانية عالميتها الإسلامية في الدوافع وفي الأهداف، وفي سبل الوصول إلى الأهداف. والذين خرجوا إلى الساحة الأفغانية لم يكن يدور في بالهم إلا الجهاد. لم يكونوا يفكرون في متعة دنيوية زائلة أو في مغنم مادي أو في مجتمع مترف، بل كانوا يخرجون من علامات الترف إلى شظف العيش يقتاتون الخبز والشاي.

والقضية الأفغانية نشأت في مهد الصحوة السياسية لشعوب العالم الذي وعى دوره في حياته، فأضحى يطالب حكوماته بالمشاركة في مصيره وفي مصير أمته. ومن هنا كسبت القضية هذا البعد السياسي العالمي.

القضية الأفغانية كانت ذات طرفين لم يكونا متعادلين أو متقاربين في القوة المادية في يوم من الأيام. لم يكن هناك وجه للمقارنة المادية بين الطرفين. ويعجب العالم عندما يرى الطرف الأضعف هو الثابت، والطرف الأقوى يتضعضع مع مرور الوقت حتى ينتهي إلى انهيار هذا الطرف الأقوى وتفتيته إلى

دويلات وانقشاع فكره عالميًا لتكون الساحة الأفغانية هي آخر ما يسقط من حبات العقد المنفرط، وإن بقيت هناك حبتان أو أكثر هي آيلة للسقوط في أي لحظة.

وانتصار المجاهدين في أفغانستان لم يكن ليحسب انتصارًا لهم وحدهم، بل هو نصر للمسلمين في كل مكان، ولذا جاء هذا النصر غالياً، ولذا أيضًا أراد المسلمون ألا يعكر هذا النصر أي عامل من عوامل دنيوية أذكاها الإعلام الأجنبي وضخمها حتى جعلها شبه مُسلَّمة، بينما هي مجرد إثارة للفتنة والنعرات الجاهلية التي لا تتفق مع دوافع المجاهدين وأهدافهم.

وأظن أن التجربة الأفغانية تجربة فريدة في وقتنا الحاضر من حيث الأساليب التي عولجت بها القضية، لا من حيث الدوافع والأهداف، فالجهاد عند المسلمين ليس فريدًا محصورًا بزمن معين أو زمن يأتي. ولا أظن أن الأسلوب الذي عولجت به القضية سوف يتكرر في أماكن أخرى من بلاد المسلمين المحتاجه إلى الجهاد؛ لأن الظروف تختلف.

لقد هيأ الله ـ تعالى ـ للمجاهدين مجموعة من العوامل المساعدة تتعلق بالمكان والزمان والظروف الاجتماعية والسياسية والدينية. فأفاد منها المجاهدون. أما المكان فقد تهيأت لهم أرض الباكستان ينطلقون منها، وأما الظروف الاجتماعية فإنهم على وفاق مع إخوانهم الباكستانيين الذين حلوا ضيوفًا عليهم، أما السياسية فإنهم تعرضوا لغزو قوة غير مرغوب فيها، فرضت عليهم معتقدًا دخيلاً عليهم، أما الدينية فإن رفع راية الجهاد كفيل بلفت نظر المسلمين خاصة عندما ثبت الصدق في رفع الراية، ولم يكن الرفع مجرد شعار يرفع رغبة في تحقيق أغراض دنيوية صرفة.

ويأتي هنا دور العلماء والدارسين والباحثين العلميين «الأكاديميين» الذين يسجلون هذه التجربة في دراسات موضوعية بعيدة عن الطابع العاطفي الذي

اتسمت بـه معظم الكتابـات الصحفية، ومجردة تبين لـلأمة جـوانب الضعف التي مرت بهـا التجربـة سعيًا إلى تلافيهـا، أو العمل على تلافيهـا في تجارب قادمـة. وهذا يعني أن هناك جـوانب ضعف مرت بهـا التجربة الأفغـانية؛ لأن الذين كـانوا يديـرونها هم بشر معرضـون للتقصير على أية حـال وإن سعوا إلى الكمال.

ومن هذه الجهود الموسوعة الأفغانيـة «موسوعة الجهاد الأفغاني» التي سبق لي أن تحدثت عنها في صفحـات «المسلمون» ويتوقع لها رصـدًا حيًا لمسيرة الجهاد في أفغـانستان منذ بـروز التوجه الإسلامي إلى إقـامة دولة إسـلامية في أفغانستان.

هنيئًا للأفغـان بهذه النهاية الطيبـة، والدعاء بالشهادة لمـن قام النصر على أرواحهم، وهنيئًا للمسلمين بنصر من الله، هو إشـارة إلى أن الله تعالى قد وعد بنصر من ينصره، وكان الله في عون الجميع.